

وقد شرح القرآن شيئاً من هذا التصور كما يقول تعالى: وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْإِنْفَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿١﴾. ولذلك يعرف الناس قصصاً كثيرة لمقاتلين تمرغوا فوق ويعرف الناس بالمقابل أصحاباً أشداء داهمهم الموت لماذا؟ لأن هذه الآجال محسومة قبل أن يخلق الناس، بل إن بعض الجهلة إذا ذكر له أن رجلاً من الناس مات في سبيل الله يقع في قلبه أن سلامته هو من هذا الموت الله ! وهذا نظير تفكير عبد الله بن أبي حين حكى الله تصرفه ومقالته : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالِ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ( . ولا يخطر بباليه أن هذا الموضع الذي يمر به يحتمل أن يكون هو الذي كتب الله وفاته فيه بعد كذا وكذا من والمراد أن هذه اللحظة القادمة التي تنتظرني وتنتظر لحظة لا تقبل التأجيل ولا التقديم، قررها الجبار جل جلاله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَمَنْ جُمِلَ التَّعْلُقُ بِالْأَسْبَابِ الْمَادِيَةِ أَنْ كَثِيرًا مِنَ السَّاسَةِ وَالْأَثْرِيَاءِ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ فِي قُصُورِهِمُ الْمَشِيدَةِ أَبْعَدَ عَنْ مَخَاطِرِ الْمَوْتِ مِنْ سَكَانِ الشَّقِّ وَالصَّفِيحِ وَالْأَحْيَاءِ الْعَشَوَائِيَةِ وَالْقُرْآنَ يَكْشِفُ هَذَا الشُّعُورَ الْمَزِيفَ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ أَنْتُمْ فِي نَاسٍ يَكْرَهُ فَرِيضَةُ (الجهاد) لأنه يظن أنها تقربه للموت! وينسى أن الموت قررت له ساعة فحتى لو سلمت من خطر معين، وسيأتي خطر لن تفر منه . «التحايد». وأما التحايد فهو أشبه بمحاولة التحاشي عن سهام الموت، وهو أن الإنسان يسير القدر المخبوء، حيث يقول تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ أَوْ مَسْتَشْفَى أَوْ غَيْرِهَا سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنْ عَمْرِهِ، عَقْلِيَّةً بَحْتَةً، وَمَا يَمُورُ فِيهَا مِنَ الْأَحَاسِيْسِ؛ أَنْ بَعْضُ النَّاسِ يَكْرَهُ ذِكْرَ الْمَوْتِ، وَأَنَّهُ حِينَ يَذْكُرُهُ الْمَشْرُوعَةُ فِي مَدَافِعَةِ الْمَوْتِ؛ يَظُنُّ أَنَّهُ سَيُؤَجِّلُ يَوْمَهُ الْمَكْتُوبَ، حِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَتَرَوْنَ تَبْكِتِيًّا وَافْتَرَضَ أَنْ خَطَرًا مِنَ الْأَخْطَارِ فَحَتَّى مَا سَتَعِيشُهُ بَعْدَ ذَلِكَ سَيُظِلُّ فِتْرَةً زَمْنِيَّةً يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ النَّاسِ مِنْ سَيَمُوتُ فِي هَذَا الشَّهْرِ، النَّهَايَةِ الْمَحْتَوَمَةِ. سَاعَةً مَكْتُوبَةً قَرِيبَةً مَنَا سَنُغَادِرُ فِيهَا هَذِهِ الْحَيَاةَ. السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهَا الْآنَ بِالْعَدِّ التَّنَاقُصِيِّ . فَإِذَا كَانَ الْعَامَ الْمَاضِيَّ يَفْصَلُنَا عَنْهَا ثَلَاثَ سَنِينَ، دَقِيقَةً مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْحَاسِمَةِ لِلانْتِقَالِ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ جَلَسْنَا فِي مَنْزِلِهِ وَقَدِمَ بَعْضُ النَّاسِ يَعْزُونَ، وَمَكُنْتُ لِيَالِي وَصُورَتِهِ لَا تَفَارِقُ وَأَعِيدَ تَذَكُّرُ كُلِّ كَلِمَةٍ قَالَهَا حِينَ كَانَ فِي ضِيَاغَتِي الْأَرْبَعَاءِ الَّذِي سَبَقَ وَفَاتِهِ. أَرِيزًا فِي دَاخِلِي مَا اسْتَطَعْتُ. وَالْمَعْزُونَ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ، أَطَالَعُ وَجْهَ النَّاسِ، لِلْعِزَاءِ، وَيُوسِدُ لَحْدَهُ، فِي مَكَانِي لَا أَعْرِفُ مَاذَا أَصْنَعُ . ثُمَّ اتَّصَلْتُ ، الْمَتَهْدِجَ، وَسَأَلْتُهُ : أَبُو عَبْدِ الْكَرِيمِ . فَقَاطَعَنِي، عَبْدُ الْكَرِيمِ يَطْلُبُكَ الْحَلَّ. انْتَضَرْنَا سَوِيْعَةً، وَكَشَفَ لَنَا وَقَبِلْتَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ حَيًّا وَمَيِّتًا يَا أَبَا عَبْدِ الْكَرِيمِ. ثَجَلَسْنَا نَتَجَاذِبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فَأَثَارَ صَاحِبِي مَسْأَلَةٍ (صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ لِلْمَسَافِرِ)، وَطَلَبَ مِنِّي كِتَابًا عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ . ثُمَّ اسْتَأْذَنَ صَاحِبِي وَغَادَرَ. وَفِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّذِي يَلِيهِ اتَّصَلْتُ فَقَالَتْ لِي : تَوَفِّي، صَمْتُ ، وَودعت الوالدة وأغلقت الهاتف، بشكل خاطئ، وثلاثين وأربعمئة وألف قدم إلى الرياض أحد أقاربي وكانت بيني وبينه مودة حميمية خاصة، الساعة ما رأيت مثله في سلامة القلب للناس،